دكتور طيّب تيزيني

مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط

الطبعة الخامسة

مع مقدمة

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

دار دمشق ـ دمشق شارع بور سعيد

هاتف ١١١٠٢٢ ـ ١١١٠٤٨

مقدمة الطبعة الخامسة

انقضت عشر سنوات على صدور « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي الوسيط » ، منذ عام ١٩٧١ حتى الآن . وهي فترة ذات دلالة خاصة في سياق البحث العلمي في الوطن العربي . فيها برزت اخطر قضية ثقافية في الحياة الثقافية العربية الراهنة . تلك هي قضية التراث العربي منهجا وتطبيقا .

اننا نعيش هذه المرحلة بكل ثقلها وآفاقها ، بكل اشكالاتها وتعقيداتها وحساسيتها . واذا كنا نمثل شاهدا على ذلك ، فاننا،في الوقت نفسه،ندرك مسؤوليتنا التاريخية الكبرى ازاءه .

لقد مرت على العالم العربي في المرحلة المعنية احداث ذات ابعاد متعددة ، اقتصادية وسياسية وثقافية ، تشير كلها الى محور مركزي ، ذلك هو المعركة على التراث العربي ، النظري منه على وجه الخصوص . من هنا ، نتبين احد اوجه الاهمية لاعادة طباعة هذا الكتاب الذي بين أيدينا .

فلقد صدر الكتاب المذكور مستجيبا لاحتياجات تلك الوضعية فاعلا فيها ، محرضا كل الاطراف المهتمة بالقضية . فالمسالة الفلسفية في المجتمع العربي الاسلامي الوسيط ظهرت على انها تتصل اوثق اتصال بالمسالة الثقافية العربية المعاصرة : ان الجسور التراثية بين الماضي والحاضر برزت على اكثر ما يكون البروز وبصورة تتضح فيها اشكالية هذه الجسور في مناهج البحث المهيمنة في العالم العربي .

لقد تبين ، اذ صدر الكتاب ، ان العودة الى الفكر الفلسفي العربي القروسطي ليس من الضروري ان تمثل ترفا ثقافيا نظريا اولا ، وليس من الضروري أن تجسد موقفا منهجيا من المواقف المنهجية المهيمنة ثانيا . واذ لم يكن الامر لا هذا ولا ذاك ، فقد اتضح ان العودة الى ذلك الفكر يمكن ان تمثل مطلبا جديا عميقا من مطالب المرحلة العربية الراهنة في وجهها الثقافي النظري كما اتضح انه يمكن ان تجسد موقفا منهجيا خارجا على البنية المهيمنة وممهدا لوضعية نوعية جديدة في البحث الفلسفي التاريخي العربي .

لم يكن من السهل ان يختط طريق جديد على النحو المشار اليه . فالخصوم يشهرون السلاح في وجه الوليد ، داعين الى نقضه او التقليل من قيمته . ولم يكن هذا الوليد قد اكتشف بعد بعمق اشكال العمل المنهجي القادرة على مواجهة النقد المدمر والمنطلق من الخصوم . ورغم ذلك استطاع ان يثبت ، وان يحقق حضورا كثيفا في الحياة الثقافية النظرية العربية .

ان « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط » يصدر في طبعته الخامسة في وقت صدر فيه ايضا كتاب « من التراث الى الثورة » ، اي في وقت اتضحت فيه بمزيدمن العمق والخطورة والحسمية اهمية المنهج في البحث التراثي النظري العربي . وبذلك ، فان قراءة الاول اكتسبت دعما منهجيا مبدئيا في قراءة الثاني .

واذا كان الكتاب الاول يصدر اليوم في طبعته الجديدة ، فان هذا يشير بوضوح الى اهمية المسالة المطروحة فيه المرحلة العربية الراهنة اولا ، والى اهمية منهجية البحث المتبعة فيه ثانيا ، والجمهور العربي الناهض الذي تلقف الكتاب باهتمام بالغ ، سوف يدرك ، ثانية ، الاهمية القصوى للثقة التي اولاها اياه منذ طبعته الاولى .

ولا سبيل الى تجاوز القول بان الكتاب المعني سوف يشهد اعادة بناء شاملة في طبعة لاحقة منه بحيث تتاح له فرصة الظهور بمزيد من التدقيق والتعميق . ويبقى ان نقول بان انجاز هذه المهمة سوف يقترن بعملية اتمام ما بدأناه بكتاب « من التراث الى الثورة » .

اننا سنحافظ على كتاب « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط » في صيغته التي اكتسبها منذ عشر سنوات والتي امتلك على اساسها القدرة على اثارة المناقشة الفلسفية العلمية في صفوف المثقفين والمفكرين والطلبة . نقول ذلك رغم اننا جادون في جهدنا في صيغته « مشروع الرؤية » الجديد والذي بدأناه بـ « من التراث الى الثورة » ، اي المشروع الذي سينطوي على المراحل الفلسفية التي تعرض لها الكتاب الاول ، وان بمزيد من الاتساع والشمول والتعميق .

هكذا تظهر الطبعة الخامسة من الكتاب العتيد حاملة كل الامل في خلق مزيد من الحوار الفلسفي التاريخي العربي ضمن افق ناهض وبابعاد اكثر رحابة .

دمشق في ١٩٨١/٤/٦

المؤلف

على طريق الوضوح المنهجي

هنالك حاليا واقع فكري يبرز بالحاح ، يتميز بكون علم تاريخ الفلسفة لا يعالج بشكل كاف من وجهة النظر العلمية المعمقة ، وذلك بالرغم من ان ثمة كمية من الاعمال الجيدة قد صدرت مؤخرا(١) . ان هذا الوضع لا يلحق ضررا بالقطاع الخاص المعني هنا فقط ، قطاع تاريخ الفلسفة ، وانما يمتد بتأثيره السلبي هذا الى ابعد من ذلك . ذلك لأن المقولات والمفاهيم ، وخصوصا البعض منها الذي ساهم بشكل اساسي في بناء وتشكيل انظمة Systems (٢) العلوم المختلفة ، لايمكن معالجتها بشكل شامل نسبيا وعلمي حازم ، اذا نظر اليها فقط من خلال انتظام منطقي ، حتى ولو تم ذلك بالعلاقة مع الفروع العلمية الاخرى .

ان المعالجة الدقيقة لواحد من تلك المفاهيم في نشوئه وعلى الاقل من خلال فترات تطوره الجوهرية ، اي في تاريخيته الجدلية ــ وبالطبع بمساعدة فروع المعرفة الاخرى ــ هي المخوّلة والقادرة فعلا على اكسابنا ، ما امكن ، فهماً علمياً شاملا لذلك المفهوم . فمفهوم الجوهر Substance (٣) مثلا ، الذي لعب دورا رئيسا في الانظمة الفلسفية للفلاسفة اليونان الطبيعيين الاول كما عند ارسطو بشكل خاص ، والذي تضمن منطلقا ورؤية مادية فلسفية أولية ، ان هذا المفهوم لا يمكن فهمه اطلاقا من حيث هو خطوة أولية وأساسية على طريق خلق مفهوم جدلي متماسك عن المادة فقط من خلال

---

(١) بخصوص هذا ينبغي ان يشار الى ان الابحاث في مجال تاريخ الفلسفة قد استنفدت من وجهة النظر المثالية الميتافيزيقية . ومن طرف آخر تتعاظم اهمية دراسة هذا الفرع العلمي، تاريخ الفلسفة ، من وجهة نظر علمية معمقة تعاظما له منحى عمودي وآخر افقي ، اي من الناحيتين النوعية والكمية .

(٢) الكلمة باللغة الاصلية ، التي كتب فيها هذا الكتاب ، هي Systeme . ونحن سوف نقتصر فيما بعد على كتابة الكلمة بالالمانية دون اعادة الايضاح المقدم هنا .

(٣) Substanz

تعريفات منطقية وانطلاقا من مرحلة تطوره الراهنة التي يجتازها خصوصا على أيدي بعض الفلاسفة المثاليين(١) .

ولا شك ان نتيجة هذا المنطلق المنهجي الضيق لا يمكن أن تكون إلا رفض ذلك المفهوم (الجوهر) كخطيئة أصلية مثقلة بمضمون ميتافيزيقي ، كما أن مثل هذا المنطلق اللاتاريخي في تاريخ الفلسفة يمكن أن يؤدي بسهولة الى ازالة هذا العلم نفسه ، من حيث هو كذلك .

ان تشكيل وتطوير نظريات وفرضيات ومقولات ومفاهيم علمية لا يمكن ان يستجيبا لمستلزمات الدقة العلمية انطلاقا من البناء المنطقي لهذه النظريات والفرضيات والمقولات والمفاهيم فقط . ان عملية التشكيل والتطوير تلك ينبغي ، استجابة لذلك المبدأ العلمي ، أن تُرصد وتعمق من خلال بحث تلك الركائز العلمية في تاريخيتها . بكلمة اخرى ، ان المنطق ينبغي أن يُرى ويمارس في تاريخه ، والتاريخ في منطقه، وذلك بشكل عضوي وثيق . فاللحظة المنطقية الجدلية في مفهوم ما يمكن استنطاقها واستخراجها بشكل أدق وأكثر شمولية ، حين تُبحث في وحدتها العميقة مع تاريخها ، أي مع تاريخ المفهوم نفسه(٢) .

ان الاهمية الكبيرة لهذه المسألة تظهر بشكل خاص في الوقت الراهن بالنسبة الى قضايا جديدة في العلوم الطبيعية والتكنولوجية والاجتماعية . فليس من النادر أن نلقى آراء ونظريات تعالج بعض المفاهيم ، مثل «البنية» أو «الشكل» أو «النظام» أو «التقدم» ، وذلك انطلاقاً من اعتبارات تتعلق بمستوى تطور هذه المفاهيم الراهن فقط ، ولكن من خلال ذلك يُهمَل جانب أساسي هام من جوانب تلك المفاهيم . ان التاريخ والمنطق يكملان بعضهما في وحدة جدلية ، وهذا يعني أن أحدهما لا ينفي أو يستنفد الآخر . **فبغض النظر عن الأولوية الوجودية (الانطولوجية) للتاريخ** ، فان كليهما جوهري

---

(١) مثل N. Hartmann و G. Jacoby ، انظر حول هذا : الفلسفة الالمانية من ١٩١٧ حتى ١٩٤٥ ، ص ٢٦ ـ ٣٦ ، و : الفلسفة الالمانية بعد ١٩٤٥ ، ص ٣٦ ـ ٤٠ ، برلين ١٩٦١ لمجموعة من المؤلفين .

(٢) ان هذه الفكرة الجوهرية ، الخاصة بفهم جدلي لبناء الفكر الفلسفي ، عبر عنها هيجل بشكل بارز ، وان كان قد أتم هذا منطلقا من « فكرته المطلقة » . فهو يؤكد « بأن تتابع انظمة Systeme الفلسفة في التاريخ هو نفس التتابع في الاشتقاق المنطقي للتحديدات المفهومية الخاصة بالفكرة » . (G.W.F. Hegel : محاضرات حول تاريخ الفلسفة ـ مقدمة . لايبزغ ١٩٤٠ ، ص ١١٩) .

من أجل وضع وتطوير مفاهيم علمية فلسفية ما . ولكن هذه المساواة في الجوهرية والأهمية لا تعني ، بطبيعة الحال ، اغماض العين تلقاء الحالة العيانية الخاصة التي يمكن أن تعرض لنا ، بما فيها من تعقيدات وبما لهامن جوانب جوهرية وأخرى ثانوية .

لهذا كله نجد أن مجرى فترة من فترات التاريخ النظري ، في تعقده وفي غناه ، لا يمكن أن يستوعب ويسبر غوره بحزم علمي الا من خلال منهجية Methodology (١) حازمة علمياً ، منهجية لها القدرة على استشفاف وسبر غور ذلك المجرى بلحظيته ، التاريخية والمنطقية . وهنا لابد من التأكيدعلى أن هذا القول لا يقوم على امتياز صوري خاص بالمنهجية هذه تلقاء المنهجيات الأخرى ، بل أنه يشتق من القانونية الذاتية للتطور التاريخي الخاص بالفكر النظري .

لقد حلت المنهجية هذه قضية « التاريخي » و « المنطقي » في خطوطها الأساسية ، حيث انطلقت من انه ــ في المنطق ــ يجب على تاريخ الفكر أن يلتحم ويتآخى مع قوانين الفكر نفسه .

ونحن حين نحاول هنا دراسة الفكر الفلسفي المادي لدى الفلاسفة العرب الاسلاميين في العصر الوسيط في علاقاته الوثيقة قليلا او كثيرا بالفكر الفلسفي اليوناني ، فاننا لا نعمل على اقحام ذلك الفكر العربي الاسلامي ضمن اطار تلك المنهجية اقحاما ولا على تطويعه لها بشكل تعسفي ، ذلكأن مثل هذا الامر لا يعدو ان يكون عملية هجينة غريبة عن العلم التاريخي والفلسفي . على عكس ذلك ، نحن نطمح هنا الى أن نبحث تاريخالفكر ذاك من خلال منظار جديد يؤكد في الخط الاول على وحدة التاريخ الانساني وعلى عملية النمو الذاتي لهذا التاريخ ، وبالتالي على كون المنهجية العلمية المعاصرة قادرة على تمثل التاريخ ذاك واستيعابه بشكل أعمق وأكثر غنى ودقة مما فعلته المنهجيات السابقة التي تكونت ضمن هذا التاريخ .

ان وضع المسالة بهذا الشكل جعلنا نتلمس بالضرورة القضايا الرئيسية في الفكر العربي الاسلامي الوسيط ، التي مارست تاثيراً ملحوظاً على تشكل ونمو وتطور هذا الفكر . لذلك جاء هذا البحث في مجمله دراسة لتاريخ الفكر الفلسفي المادي اليوناني والعربي الاسلامي في حلقاته الجوهرية التي حققها ، ومن خلال المسائل الرئيسية ــ في رأينا ــ التي عالجها .

---

(١) Methodologie

القسم الاول

الجذور التاريخية والمعرفية للفكر الفلسفي المادي والمثالي

بين المادية والمثالية والاسطورة

النشوء المعقد للفكر الفلسفي المادي والمثالي

ان تاريخ الفكر النظري له خاصيته الذاتية . هذه الخاصية تكمن في عملية تكوّن معقدة لاتجاهين فلسفيين ، يكتسب كل منهما طابعا متعارضاً مع الآخر بشكل آخذ في العمق والوضوح . هذان الاتجاهان هما المادي والمثالي(١) . انهما لم يتكونا دفعة واحدة كشكلين من اشكال الفكر الفلسفي. فهما قد اجتازا تاريخاً خاصاً بهما ، ولا يزالان يمارسان وجودهما ويتابعان بالتالي سيرهما التاريخي . وقد تم هذا ، ويتم في عصرنا ، ليس بمعنى انهما يضعان لنفسيهما غايات بعيدة او قريبة بشكل قبلي ميتافيزيقي teleologic (٢). ان الاخذ بهذا الراي لا ينسجم اطلاقا مع الوقائع التاريخية العيانية ، بل يقوم على مصادرة دينية تنطلق من عملية خلق الهي للتاريخ وللعالم عموماً .

من طرف آخر ينبغي ابراز واقع كون عملية التطور الفكري هذه ، المميزة بتشكل اتجاهين او ميلين فلسفيين رئيسيين ، لم تأخذ مداها بشكل محايد ، اي دون نزاع . فالمادية والمثالية لم تتطورا بعيدا عن بعضهما

---

(١) قد يبدو من نافلة القول ان نشير الى اننا هنا نستخدم ونبحث هذين المفهومين المثالية Idealism والمادية Materialism من حيث هما مفهومان « فلسفيان انطولوجيان » ، وليس من حيث دلالتهما « الاخلاقية moral » . هذا بالرغم من انهما ، كمفهومين فلسفيين انطولوجيين ، يتضمنان في ثنائهما نتائج اخلاقية نظرية وموقفا اخلاقيا عمليا .

(٢) teleologisch . ان هيجل يقول بهذه الغائية القبلية الميتافيزيقية . فهو يقرر : « نحن يجب علينا ان نبحث في التاريخ عن هدف عام ، عن هدف نهائي للعالم ... » (ج.ف.ف. هيجل : العقل في التاريخ ـ تقدمة لفلسفة تاريخ العالم ، لايبزغ ، دار نشر فلكس مايتر ١٩١٧ ، ص ٥) .

أو الى جانب بعضهما ، بل من خلال بعضهما ، وبشكل خاص ، ضد بعضهما . لقد أكدتا نفسيهما وأرستا قواعدهما ليس من خلال تطور منسجم ناجز ، بل ان النزاعية والعدائية هما ما يميز ذاك التطور . وفي الحقيقة ، ان هذا ، انطلاقاً من جوهر القضية ، ينسجم مع الميل الجوهري الذاتي لكلا الاتجاهين الفلسفيين الرئيسيين ، هذا الميل الذي يمتلك القانونية التطورية الخاصة .

ان هذا يؤكد عليه هنا بالحاح ، لأنه ذو اهمية مبدئية بارزة بالنسبة الى القضايا المطروحة في هذا الكتاب .

وبالطبع فاننا ، آخذين بعين الاعتبار هذه الرؤية المنهجية للمضمون الداخلي لتاريخ الفكر الانساني النظري ، سوف نفهم هذا التاريخ على انه تاريخ لقطبين نشآ وتطورا على أساس معطيات الفعالية النظرية والعملية للانسان الاجتماعي . ونحن اذ نقول « قطبين » ، لانعني انهما الوحيدان اللذان يتمتعان بوجود نظري في الدماغ الانساني ، بل الى جانبهما وحولهما تتواجد عناصر « جانبية » . غير ان « قطبية » ذنيك القطبين و « جانبية » العناصر تلك ليستا مطلقتين ، بل هنالك علاقة وثيقة متبادلة بينهما ، لها طابع جدلي ، وذلك بمعنى أن العناصر الجانبية لا تزال بعد على طريق نضجها الذاتي واكتسابها هوية واضحة متميزة ، أي انها لا تزال بعد في طريقها الى أن تتحول الى جزء لا يتجزأ من واحد من القطبين ، بحيث يجري تمثلها منه ضمن فعالية ذاتية .

والمسألة هذه ، مسألة العلاقة الوثيقة ذات الطابع الجدلي والقائمة بين القطبين والعناصر الجانبية ، تتبدى من خلال كون القطبين نفسيهما نتاج تطور طويل وبطيء ومعقد للغاية للعناصر الجانبية . ولكن هذا لايعني أنهما يُفهمان **فقط** من زاوية كونهما نتاج ذاك التطور ، ذلك لأن وجود العناصر الجانبية المتناقضة بشكل خفي وجود" نسبي تماماً وهذا يرتد الى أنها تقوم على علاقة وجودية (انطولوجية) عميقة مع القطبين المومى اليهما، والى أنها ، من حيث مضمونها **الميلي** tendentious (١) الجوهري ، تخص الواحد أو الآخر من القطبين ، كما هو الحال مثلاً بالنسبة الى اللاادرية Agnosticism (٢) بموقعها من المادية والمثالية . فهذه ، اي اللاادرية .

---

(١) tendenzioes

(٢) Agnostizismus

تبدو ظاهرياً وكأنها تشكل قطاعاً خاصاً متميزاً عن المادية وعن المثالية . الا انها ، في حقيقة الأمر ، ما هي الا نمو طبيعي للفكر الفلسفي المثالي . وظهورها كشيء مجانب ـ جانبي ـ للمادية والمثالية اللتين تشكلان القطبين المتميزين ، لا يخفي حقيقتها القائمة على علاقة داخلية مع المثالية .

الفكر اليوناني الفلسفي والتطور الفلسفي اللاحق

ان انجلز حينما يقول « بأنه في الاشكال المتعددة للفلسفة اليونانية توجد ، مسبقاً ، تقريباً كل أساليب الرؤية اللاحقة بشكل بذري أولي »(١)، فان هذا لا ينبغي أن يفهم بمعنى أن التطور الأساسي للفكر النظري اقتصر على العصر اليوناني النهجي (الكلاسيكي) ، وأنه بالتالي سوف يظل هكذا ، بحيث أنه لن يجري انجاز شيء جوهري في هذا المجال بعد العصر ذاك ، أو أنه ، بشكل محدد ، لم ينجز شيء جوهري في هذا الاتجاه . ان رأياً مثل هذا يشبه ولا شك راي هيجل الصوفي ، الذي يتوجب من خلاله على « العقل العالمي » أن يجد مرحلته القصوى في نظام هيجل الفلسفي نفسه . بالطبع ، حين تعطى المسالة هذا الاطار الصوفي ، فانها تكون قد افتقدت عنصراً جوهرياً ، هو امكانية حلها حلاً متطابقاً مع معطيات التقدم العلمي والاجتماعي الانساني .

ونحن اذ اوردنا ما تقدم ، فاننا لم نطمح بذلك الى أن نشير الى النوعيات الجديدة في الفلسفة الحديثة أو المعاصرة ، بل ان المسالة تدور هنا حول اكتشاف وتعرية وعرض الجوانب الجديدة نوعياً في تطور الفكر الفلسفي لدى الفلاسفة الاسلاميين العرب، تقريباً من القرن الثامن حتى القرن الثاني عشر، وخصوصاً فيما يتعلق بالميل المادي في انظمتهم الفلسفية. ومن خلال انجاز هذه المحاولة سوف نكتسب اليقين بأن الاستمرارية Continuity (٢) في التطور النظري الانساني بمجموعه لا تنفي ولا تستنفد اللااستمرارية Discontinuity (٣) النوعية الخاصة ، المتمثلة بواحدة من فترات ذلك التطور. اننا سوف نحاول البرهان بدقة وثائقية ووضوح نظري ما أمكن ، في مجرى هذا الكتاب ، على أن تينك اللحظتين أو المنحيين (أي الاستمرارية واللااستمرارية) في التطور النظري المعني يشكلان وحدة جدلية عميقة

---

(١) F. Engels تقدمة قديمة لـ « ضد ديرنغ » ـ حول الجدل . في كتاب « ضد ديرنغ » دار نشر ديتز ، برلين ١٩٥٩ ، ص ٤١٤ .

(٢) Kontinuitaet (٣) Diskontinuitaet

نسبية ، لا يمكن بمعزل عنها فهم واستيعاب تاريخ الفلسفة في خطه العام وفي دقائقه وتفرداته فهماً واستيعاباً علميين عميقين .

أن تكون أساليب الرؤية الفلسفية اللاحقة على الفلسفة اليونانية قد وجدت تعبيرها الاولي مسبقاً في هذه الفلسفة ، لا يعني اطلاقاً القول بتتابع للفلسفة اليونانية قائم على نفي منعطفات نوعية فلسفياً . انه لا يعني القول بتطور مستقيم . ان التطور النظري الفكري ، كأي تطور آخر ، يتم ، منظوراً اليه من خلال ميله ومضمونه ، ليس فقط كمياً ، وانما أيضاً نوعياً . بيد أن خاصية التطور النظري الفكري الموغلة في التجريد يمكن أن تثير الاعتقاد بأنها — بسبب الاستقلالية Independence (١) النسبية التي تتمتع بها تجاه الواقع الخارجي الموضوعي والتي اكتسبتها على مر الحقب التاريخية، كما وبسبب التأثير الملحوظ للتقليد Tradition (٢) المستمر داخل التطور النظري الفكري ذاك — تمثل بشكل جوهري استمرارية ذات منحى مستقيم . لكن هذا الرأي يبقى فاقد الأساس العلمي ومتعارضاً مع الوقائع التاريخية العيانيـــة .

ان نتائج ابحاث في الحقول النظرية والتجريبية والاجتماعية السياسية والاقتصادية ، وان كانت حتى الآن قليلة، تقدم مادة كافية كبرهان واضح على وجود منعطفات نوعية في تاريخ الفكر النظري لدى الشعوب المختلفة ، ومن ضمنها ولا شك ، الشعوب العربية الاسلاميـــة في العصر الوسيط .

ان هذه الرؤية المادية الجدليـــة لخاصية وطابع التطور أو التقـــدم الفكري النظري تقف في تعارض حازم مع تلك التي ترى هذا التطور علـــى أنه تاريخ خطأ (أو ضلال) مليء بالمغزى . ان J. Petzoldt ، الذي ينطلق من هذا الفهم لتاريخ الفكر ، يرى الخطأ ذاك ممثلاً بمفهوم الجوهر (٣) . ونحن حيث نحاول تجنب طرح هذه المسألة بشكل جزئي مبتور ، كما يفعل ممثلو الرأي السابق ، بل نطمح الى طرحها تاريخياً عيانياً concrete (٤) ، فاننا نجد أن قضايا نشوء وتطور الفكر النظري لدى اليونانيين القدماء ولدى العرب في العصر الوسيط وكذلك التجارب الاجتماعية العملية بشكل عام تبين أن سلوك وتفكير الانسان الواقعيين — بالمعنى الأولي البدائي للمادية — والمتجهين

---

(١) Selbstaendigkeit

(٢) Tradition

(٣) انظر كتاب J. Petzoldt : قضية العالم، الطبعة الثانية — لايبزغ وبرلين ١٩١٢ .

(٤) konkret

نحو الاشياء وعلائقها استطاعا تأكيد وجودهما فقط **حيث** نشبت بينهما وبين العنصر الاسطوري المثالي ، الآخذ بالتكون والتطور الى جانبهما ، نزاعات وتناقضات ضرورية .

عنصران في تحديد العلاقة البدائية بين « المادية والمثالية »

هنا يتوجب الكشف عن عنصرين أساسيين ، أساسيين انطلاقاً من العلاقة التاريخية الأولية الاصلية . **أما العنصر الاول** فانه يقوم على الرابطة الأولية البدائية بين « المادية » و « المثالية » ، هذه الرابطة التي تأخذ شكل وطابع الاسطورة Myth (١) . ان هذه الفرضية ، كما سنرى في هذه الدراسة القصيرة حول الخطوات الاولى لنشوء الفكر المادي والفكر المثالي ، سوف يكون تقبلها والأخذ بها في خطوطها الاساسية العامة أكثر معقولية واقتراباً من الموقف العلمي من رفضها .

ففي البدء نجد رابطة أولية توحد نسبياً بين بذور الاتجاهين الفكريين المومى اليهما فوق . بيد انه من الضروري التأكيد على أن الحديث هنا يدور بالضبط حول البذور الأولى الجنينية للمادية وللمثالية ، هذه البذور التي وجدت تعبيرها بشكل جوهري في الموقف **العملي المباشر** للانسان تلقاء العالم المادي وتلقاء ذاته هو نفسه . غير أن هذا ينبغي أن يُفهم بمعنى أنه لا يمكن التحدث هنا بعد عن تناقض متميز بين الميل المادي والآخر المثالي على الصعيد النظري theoretic (٢) في تلك المرحلة التاريخية البدائية . الا انه يمكن ، بل يجب التحدث في هذا الاطار عن وجود **حد أدنى** من التفكير « النظري ». ذلك لأن العامل الحاسم في عملية **الانتقال او الانفصال النهائية** للكائن الانساني عن العالم الحيواني قد كمن في نشاطية وفعالية هذا الكائن المكتسبة اجتماعياً ، والتي تبلورت في صنع واستعمال ادوات عمل وفي خلق وسيلة مشتركة للتفاهم ، أي في تكوين لغة .

ان هذا ، تاريخياً ، مفهوم بذاته ، فعلى أساس المستوى البدائي للقوى المنتجة (الانسان نفسه وادوات العمل المستعملة ومنشآته واماكنه وتوابعه) في تلك العهود ، وكذلك انطلاقاً من سيطرة الملكية العامة للقوى المنتجة ولوسائل الاستهلاك ، كان الناس آنذاك قادرين على الابقاء على حياتهم فقط حيث كانوا ينتجون ويستهلكون بشكل جماعي . وقد اشترط هذا بطبيعة الأمر وجود لغة معينة مشتركة .

---

(١) Mythos (٢) theoretisch

ان هذه الفعالية الانسانية الضرورية اطلاقاً والمزدوجة ، اي الانتاج المادي والتفاهم اللغوي المشترك ، كان قد توجب عليها أن تتضمن في نفس الآن لحظة معينة من الوعيية Consciousness (١) . ذلك لأن الوجود الواقعي لاناس ذلك العصر البدائي استطاع تحقيق ذاته ، من حيث هو واقعي فعلاً ، فقط ضمن اطار واتجاه محددين قائمين على قدرة اولئك الناس على استيعابهم وسيطرتهم على محيطهم Environment (٢) ذهنياً وعملياً بقدر ومستوى ضروريين .

وهكذا ففي الانسان ، من حيث هو جوهر اجتماعي صانع للأدوات ، يكمن بشكل ضروري وتلقائي حد ادنى من « التفكير النظري » . بهذاالمعنى وضمن هذا الاطار من فهم القضية نجد هذا « التفكير النظري » صفة فطرية خاصة بالانسان(٣) .

في وضع اجتماعي بدائي لا تنتج فيه ، بشكل اساسي ، قيم للتبادل والعرض والطلب وانما فقط قيم للاستعمال والاستهلاك ، كحدٍ ادنى لحفظ البقاء، يكون الوعي Consciousness (٤) «بالطبع وبالدرجةالاولى فقط وعياً للمحيط الحسي القريب nearest (٥) ووعياً للعلاقة البدائية مع اشخاص واشياء اخرى **ما عدا** (خط التأكيد مني : ط.ت) مع الفرد الصائر على طريق وعي ذاته ... »(٦) . ان الوعي الخاص بالضرورة المباشرة، اي وعي القطعان Herds (٧) ، ملتحم الى حد كبير بالعالم المادي المحيط والمباشر . نقول هنا « الى حد كبير » لنؤكد على أن ذلك الالتحام لم يكن « كلياً » ، والا لامتنع القول بوجود « ذات انسانية » و « موضوع مادي » . كما أن الطبيعة والمجتمع لم يكونا في الاعتبار الاول بالنسبة الى الانسان ، المتضمن ذلك الوعي القطيعي ، الا شيئاً واحداً متجانساً .

بهذاالقدروفي هذاالاتجاه كان ذلك الوعي وعياً موضوعياً Objective (٨) .

---

(١) Bewusstheit (٢) Umwelt

(٣) انظر : ف. انجلز ـ تقدمة قديمة لـ « ضد ديرنغ » ـ حول الجدل . في كتاب « ضد ديرنغ »، نفس المطبات السابقة ، ص ٤١٠ .

(٤) Bewusstsein (٥) Naechste

(٦) ك. ماركس و ف. انجلز : الايديولوجية الالمانية . نشر في : ماركس ـ انجلز . المؤلفات ، المجلد ٣ ، دار نشر ديتز ، برلين ١٩٥٩ ، ص ٣١ .

(٧) Herden (٨) Objektiv

ذلك لأنه اكتسب وجوده ، كما سبق وقيل ، **من خلال كونه وعياً للعلاقة** البدائية مع ناس واشياء اخرى ماعدا مع الفرد السالك طريق وعي ذاته . لكن موضوعية ذلك هي في الوقت نفسه نسبية relative (١) ، وذلك لأن الوعي الانساني هو دائماً وفي مجموع الاحوال ذاتي subjective (٢) . هذا يعني أن الناس ، حتى في أوضاعهم الاكثر بدائية ، لم يمارسوا وجودهم في هُوّية Identity (٣) مطلقة مع محيطهم ، لذلك فالكل والجزء لم يستوعبا من قبلهم اطلاقاً كشيء واحد ، بل جرى التمييز بينهما بقدر ما .

ضمن هذا الاطار الضيق للوجود الضروري لحدٍ أو قدر ما من الفعالية « التنظيرية » Theorize (٤) لدى الانسان البدائي ، تنسم العنصر المادي (الواقعي) والعنصر المثالي (اللاواقعي أو الماورائي) خيوط وجودهما الاولي وتحركا ، ولكن ، بعدُ ، ليس في شكل تناقض متميز بوضوح ضمن ذلك الوعي .

هذا ما يخص العنصر الأول في قضيتنا . وهو يقوم ، كما تبين ، على تحديد العلاقة الاولية ، البدائية بين « المادية و » المثالية ، التي تتحقق في « الاسطورة » ومن خلالها .

أما العنصر الثاني فانه يستبين من خلال ديالكتيك الرؤية لتلك العلاقة البدائية الاصلية ، وذلك على أساسٍ من أن هذه العلاقة توجد في صيرورة وتحول دائمين، وان ميل Tendency (٥) هذه الصيرورة وهذا التحول يقوم على عملية تشكلٍ ونمو قانوني regular (٦) للعنصر المادي من الطرف الاول وعلى اقصاء العنصر المثالي من الطرف الآخر .

ولقد وضعت الفعالية العملية للانسان ، أي العمل ، الحجر الأساسي لنشوء الاسطورة ، وفي نفس الوقت لانحلالها الى العنصر المادي (الواقعي) والعنصر المثالي (اللاواقعي أو الماورائي) . والجدير بالملاحظة العميقة انه في عملية الانتاج Process of Production (٧) ذاتها انبعث ذلك الفكر «النظري» البدائي ، أي الاسطورة ، واكد ذاته . انه نشأ كرد فعل ذهني تلقائي على المثيرات الحسية المسبّبة عن العلاقات بين الانسان ومحيطه ، هذه العلاقات التي يكمن مبعثها ، هي بالتالي ، في إعمال الانسان أدوات عمل بدائية ،

---

(١) Relativ (٢) Subjektiv (٣) Identitaet
(٤) Theorethisieren (٥) Tendenz (٦) Gesetzmaessig
(٧) Produktions prozess

ذات آفاق ضحلة ، في محيطه الخارجي المحدود .

ضمن هذا الحقل وبهذا الحد استطاعت « الاسطورة » انجازوظيفتها التي قامت على التوجيه Orientation (١) الضروري الهادف قليلاً أوكثيراً للانسان تجاه الاشياء الخارجية المعطاة وعلائقها الموضوعية . وفي الحقيقة، استطاع الانسان كسب حياته المادية ، حيث تمكن ، ولو بالحد الادنى ، من تحويل العالم الموضوعي الخارجي الى موضوع Object (٢) له ، من حيث هو ذات Subject (٣) فعالة عملياً .

ومن خلال الفعل الواعي أكثر فأكثر والخاص بالانسان ، هذا الفعل الذي يكتسب ، من خلال استخدام أدوات العمل وبالتالي من خلال التأثير على العالم الخارجي ، لامباشرة Indirection (٤) تنحو باتجاه تعميق ذاتها أكثر فأكثر ، من خلال ذلك الفعل يعيد الانسان ذهنياً تركيب ذلك العالم ثم يموضعه ثانية . ان هذه العملية ، المنشطرة الى شقين والموحّدة في نفس الوقت ، تميزت بكون الانسان قد لجأ الى تمديد مقاييس وخصائص جسده ونفسه على المحيط المادي الخارجي، وبكونه ــ في اتجاه معاكس ــ قد عمل على تمديد مقاييس وخصائص المحيط ذاك عليه نفسه . وقد فعل هذا بدافع من حاجاته الحياتية المادية المباشرة ، التي لم يكن تحقيقها ممكناً الا من خلال اقتراب معمق من العالم المادي ، أي من خلال النفاذ الى هذا العالم بقانونياته الخاصة وتحويل ذلك الى موقف عملي منه (أي من العالم).

هذه العملية الجدلية بين الانسان والعالم المحيط به يمكن فهمها اذن على انها في نفس الوقت توضيع Objectification (٥) للانسان وتذييت Subjectification (٦) للعالم المادي المحيط أو أحيائه ــ بمعنى اضفاء الحياة الانسانية عليه ــ . ولا شك ان هذا قد كان ، ضمن الأطر التاريخية التي وجد فيها ، عملية واقعية ايجابية ذات مضمون فكري ، تكمن وظيفته ، بشكل أساسي ، في تمثل ذلك الموضوع ذهنياً والسيطرة عليه عملياً .

ان هـ . وهـ.ا. فرنكفورت ، اللذين يستشهدان بـ « كرولي » حيث يقول « ليس للانسان البدائي الا اسلوب واحد للتفكير ، واسلوب واحد للتعبير ، واسلوب واحد للكلام ــ الاسلوب الشخصي » ، يفسران قوله هذا بتأكيدهما كما يلي : « وهذا ليس معناه (كما يحسب الكثيرون) ان

---

(١) Orientierung (٢) Objekt (٣) Subjekt
(٤) Unmittelbarkeit (٥) Objektivierung (٦) Subjektivierung

الانسان البدائي ، حين يحاول تفسير الظواهر الطبيعية ، يغدق على عالم الجماد صفات انسانية . ان الانسان البدائي لا يعرف عالماً جماداً أبداً . ولهذا السبب عينه ، لا « يشخص » ظواهر الجماد ، ولا يملأ عالماً فارغاً باشباح الموتى ، كما تريدنا « الروحانية » أن نعتقد . »(١)

على هذا التفسير لقول كرولي السابق نرى ضرورة التعليق بما يلي :

١ ــ من الضروري التمييز بين الاحيائية او الحياتية وبين الروحانية، ذلك لأن الأولى سادت الفترة الأولى من حياة الانسان ، وهي العصر الحجري القديم . في هذه الفترة نشأ الشكل الاول للمجتمع الانساني ، الممثل بمجتمع القطيع ونشأ معه الوعي الانساني البدائي ، وعي القطيع ، أو الوعي القطيعي. كان انسان ذلك العصر يرى في الظاهرات الطبيعية ينابيع قوة حية . فهو لم يضاعف هذه الظاهرات ، أي انه لم يضف اليها قوى اخرى ماورائية وذات طبيعة روحية . انطلاقاً من هذا الواقع التاريخي تبرز حقيقة أساسية بالنسبة الينا ، وهي ان وعي الانسان الاول سابق على الوعي الديني ، اللاواقعي ، وبالتالي الممهد للفكر المثالي اللاحق . بهذا نود القول أن الانسان البدائي ، المتوحش ، لم يلجأ الى اغداق صفات ماورائية على الطبيعة المحيطة به ، بل اغدق عليها الكثير من صفاته نفسه (٢) ، بشكل استحالت فيه الى قوى انسانية حية يتعايش معها عبر الادوات الحجرية البدائية .

٢ ــ ان هـ . وهـ.ا. فرنكفورت من خلال رأيهما بأن الانسان البدائي لا « يغدق على عالم الجماد صفات انسانية »، حين يحاول تفسير الظواهر الطبيعية ، لا يدركان حقيقة العملية الجدلية التي تتم بين الانسان ذاك والظواهر الطبيعية المحيطة به . فمما لا سبيل للشك فيه أن وجود الانسان البدائي قد ارتبط بالضرورة بتلك العملية ، التي كمنت في أنسنة تلك الظواهر من قبله ، أي في تحويل الطبيعة الى موضوع انساني ، ولو بحدود دنيا . وإلا فوجوده ، ببساطة ، كان عرضة للهلاك . لقد كان عليه أن يتآخى مع الطبيعة ، أن ينظر اليها ، من حيث هي عضوية شبيهة

---

(١) هـ. فرانكفورت ، هـ.ا. فرانكفورت ، جون ا. ولسن ، توركيلد جاكوبسن : ماقبل الفلسفة ــ ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، منشورات دار مكتبة الحياة ــ (فرع بغداد) ١٩٦٠ ص ١٦.

(٢) انظر حول ذلك بحثا لـ G.A. Gurew ، نشر في كتاب : الفلسفة والمجتمع ــ اصدار ف. بفوه و هـ. شولتسه ، دار نشر الاكاديمية ، برلين ١٩٥٨ ، وبشكل خاص الصفحات ٤٨٠ ــ ٤٨٢ .

بعضويته . وبالطبع كان هذا ، في الوقت الذي تم فيه من خلال الفعالية الأولية والمحدودة للانسان ، يتحقق دون استيعاب ذهني (فهمي) قائم على استمرارية زمنية طويلة . وفي هذا المفترق من الطرق نجد هـ. وهـ.ا. فرنكفورت يتعرضان لمسألة الزمان والمكان في الذهنية الاسطورية ، بشكل يسلب تأكيدهما السابق ، حول عدم اغداق الانسان البدائي صفات انسانية على محيطه ، صحته ، وذلك حيث يكتبان : « والفكرة الميثوبية عن (الزمان)، كأختها عن (المكان)، كيفية ومجسمة، لا كمية ومجردة . ان الفكر الميثوبي لا يعرف الزمان كبقاء متساوق ، أو كتعاقب لحظات متماثلة الكيفية . فالانسان الاول ... لم يعرف فكرة الزمن التي تشكل اطار التاريخ لنا»(١).

طبيعي انه في الوقت الذي لم يعرف فيه الفكر ذاك « فكرة » الزمن التي تشكل اطار التاريخ لنا ، فان تساوقاً ما ، تساوقاً تاريخياً **الى حدما** كان لابد من وجوده في الفكر المشار اليه هنا ، بشكل يسمح للانسان البدائي مثلا اتقاء الوحش الضاري ، الذي رآه سابقاً مرة أو اكثر من مرة . ان التجربة العملية اليومية للانسان هذا كانت تعمق باستمرار فهمه الزمني ـ التاريخي ـ لمحيطه . أي ان ذاكرته وتذكره كانا ينموان بشكل متساوق مع نمو سيطرته على محيطه من خلال ادوات العمل الأولية ، ومع نمو وتطور قدرته على التعبير الكلامي وعلى ايجاد المفاهيم . فالذهن التاريخي الزمني ، بغض النظر عن بدائيته وعن كونه لم يكتسب بعد طابعا فكرياً متناسقاً ، شكل لحظة ضرورية في تبصر الانسان الأولي البدائي « النظري » والسلوكي . وهكذا نرى ، كما يلاحظ G.A. Gurew انه حتى Lévy-Bruhl قال بوجود فكر منطقي في المجتمع البدائي الى جانب فكر سابق على المنطقية(٢) .

ولا شك ان فكراً منطقياً ـ بهذا نعني هنا الفكر الانساني البدائي الموجّه لحفظ وتعميق عملية تبيؤ الانسان مع محيطه ـ يشترط وجود نوع ما من الاستبصار التاريخي الزمني لعلاقة الانسان البدائي مع محيطه، ووجود فعل قائم على انسنة الطبيعة من قبل الانسان ، وبالتالي على اغداق واضفاء هذا الانسان صفاته الانسانية على الطبيعة . وهذا يعني ان تطور موقف المواجهة للانسان تلقاء الطبيعة من المباشرة النسبية الى اللامباشرة

---

(١) هـ. فرانكفورت ، هـ.ا. فرنكفورت ، جون ا. ولسن ، توركيلد جاكوبسن : نفس المصدر المعطى سابقا ، ص ٣٦ .

(٢) انظر : G.A. Gurew ، في نفس المصدر المعطى سابقا ، ص ٤٧٩ .

ـ بمعنى ارتفاع الانسان على الطبيعة ذهنياً وعملياً ـ كان قد مر بمرحلة معينة ، لم يستطع فيها الانسان البدائي التمييز بين الذاتي والموضوعي الا بحدود دنيا نسبية ، اقتضتها طبيعة الفعالية العملية الحياتية للانسان تلقاء الطبيعة(١) . ضمن تلك الحدود اسبغ ، او بشكل أدق ، توجب على الانسان ان يُسبغ على الطبيعة صفاته الحية الانسانية .

مما سبق يتبين ان الطبيعة Nature (٢) ، وأدوات العمل ، والفعالية الانسانية الهادفة بالضرورة والواعية نسبياً ، قد مكنت ، مجتمعة ، من نشوء الاسطورة ومن صياغتها . لقد كتب ماركس ، في حينه ، في مخطوطاته الفلسفية الاقتصادية ، ملقياً ضوءاً مكثفاً على العلاقة الضرورية الجدلية بين الانسان والطبيعة : « ان الطبيعة هي الجسد اللاعضوي للانسان ، يعني الطبيعة بحدود كونها ليست هي نفسها جسماً انسانياً . ان **يعيش** الانسان من الطبيعة ، يعني : أن الطبيعة هي جسده ، الذي يجب أن يبقى معه في تفاعل مستمر ، وذلك لكي لا يموت . » ثم يتابع قائلاً : « ان تكون الحياة العقلية والطبيعية للانسان متعلقة بالطبيعة ، ليس له معنى آخر ، سوى أن الطبيعة تتعلق بذاتها ، حيث ان الانسان جزء من الطبيعة »(٣) .

مرحلتان أساسيتان في التطور الاجتماعي للمجتمع البدائي وتاثيرهما على تطور الفكر الميثوبي ـ الاسطورة ـ

لاشك ان الكشف عن هذه العلاقة المتبادلة بين الانسان والطبيعة ، في خطوطها العامة ، ذو أهمية خاصة .

في البدء ينبغي الاشارة الى انه ، من حيث الامكان ، يكمن في تلك

---

(١) ان كون الانسان البدائي ، من حيث هو اجتماعي ، فاعلا يصنع ادوات تتيح له ، ضمن عوامل اخرى ، ارتفاعه على الطبيعة ذهنيا وعمليا ، اي اخذه موقفا مواجها ـ متقاطبا ـ للطبيعة ، يجعل من المتعذر قبول الصيغة المطلقة التالية : « ولذا فان التمييز بين الذاتي والموضوعي ليس يعني له (اي للانسان) أي شيء مطلقا . » (هـ. فرانكفورت ، هـ. ا. فرانكفورت ... : نفس المصدر المعطى سابقا ، ص ٢٣) .

(٢) Natur

(٣) ك. ماركس : نقد الاقتصاد القومي ـ موجود ضمن : المخطوطات الفلسفية الاقتصادية ، في مجلد تحت عنوان : ك. ماركس/ف. انجلز : دراسات اقتصادية صغيرة ، برلين ، دار نشر ديتز ١٩٥٥ ، ص ١٠٣

العلاقة عنصر لاعقلاني irrationalistic(١) . ذلك لأن هـذا الامكان القابل للتحقق وجد ويوجد دائماً في أثناء عملية التعميم الفكري النظري وفي مجموع الفعالية الفكرية الانسانية . وبالطبع ، لا يمكن اعتبار هذا العنصر اللاعقلاني فقط من حيث هو تعبير عن العجز العملي والذهني للانسان البدائي، وانما، وبالدرجة الاولى ، من حيث هو نتاج مباشر لفعاليته الانتاجيـة النشيطة بهذا القدر أو ذاك ، هذه الفعالية التي لابد منها والتي تحدّد بالتالي من خلال مستوى منخفض للتكنيك الموضوع تحت التصرف ، كما مـن خلال خصائص العلاقات الاجتماعية القائمة على التملك العام البدائي .

ولقد تحددت ملامح الوعي الانساني البدائيprimitive (٢) وخصائصه العامة من خلال خلفيته الاجتماعية الاقتصادية والتكنيكية . بالطبع لايجوز هنا فهم ذلك بمعنى « اشتقاق » الوعي ذاك من خلفيته المشار اليها اشتقاقاً ميكانيكياً ، وذلك بالرغم من بدائية الوعي المعني هنا . ذلك لأن بينه وبين خلفيته تلك علاقة جدلية لاتنفي ، بل تؤكد الوجود النوعي الخاص به (أي بالوعـي) .

أما الوضع الاجتماعي الاقتصادي ، وهو ما يكوّن الخلفية تلـك ، فيمكن تحديد مضمونه الجوهري من خلال الواقع التاريخي الذي قام على كون **جميـع** أعضاء المجموعات الانسانية البـدائية قـد توجب عليهـم ان يمارسوا عملاً جسدياً ، لكي يستطيعوا العيش . عن هذا الوضع ، المتميز **بالحاجة المادية المباشرة** ، ترتبت نتيجة هامة ، وهي أن اولئك الاعضاء لـم يتوفر لديهم ، بشكل عام، وقت للتفكر في مسائل الوجود الجوهرية والكلية. وقد بقي هذا الحال سائداً على الأقل حتى تلاشى **وتجووز** اجداد القبائل Ancestry (٣) من قبل نظام الاجداد الرؤساء Chief ain ancestry (٤). هنا ، في هذا النظام الجديد ، تكوّن تعـارض (تناقض) ذو طابع نزاعـي ضمن القوى الاجتماعية . وقد واكب ذلك التعارض نشوء وتطور وجه ايديولوجي جديد نسبياً ، اضعف من الوعي الجماعي الذي سيطر حتى ذلك الحـين اضعافاً ، ان لم يكن كلياً ، فقد كان قوياً .

---

(١) irrationalistisch (٢) primitiv (٣) Ahnen

(٤) Haeuptlingahnen . انظر حول هذا الموضوع : G. Paetsch ، نشيد لوتالانغي وفكرة الاله الاعلى ــ مطبوع كمخطوط في : عدد خاص من المجلة العلمية لجامعة فريدرك شلر، يينـا ، ١٩٦٣ ، ص ٧٩ .